تساند المستويات اللسانية في إبراز حجاجية الخطاب القرآني من خلال قوله تعالى:
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر الآية:28

The linguistic levels support in Showing the argumentative of the Qur'anic discourse through the Almighty's saying: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (Fatir, verse: 28)

الاسم الكامل: وفاء علوي Wafa Alaoui

الدرجة العلمية: طالبة باحثة بسلك الدكتوراه

البريد الإلكتروني: wafaalaoui596@gmail.com

جامعة مولاي اسماعيل _ الكلية المتعددة التخصصات

مختبر العلوم الانسانية والمعرفية والدراسات النصية.

الملخص:

نهدف في هذه الورقة البحثية إلى تقديم رؤية جديدة في مقاربة الخطاب القرآني مقاربة حجاجية من خلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ **فاطر الآية:28**، وهذه الرّؤية تستند في جوهرها على مبدأ التّكامل والتّساند بين مستويات الدّرس اللّساني؛ فكل مستوى لا يستقل بذاته ليبلغ أعلى درجات التّحقق الحجاجي، بل يستمد خاصيّته الحجاجية من مستوى لساني آخر؛ إذ إنّ علاقة الإمداد والاستمداد بين العلوم متفاعلة متداخلة متجدّدة.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب القرآني، التساند، المستويات اللسانية، الحجاج.

Abstract :

we aim in this research paper to present a new vision in approaching the Qur'anic discourse in an argumentative approach through the Almighty's saying: "It is only God who fears among His servants who are knowledgeable" (Fatir, verse: 28). This vision is based in essence on the principle of integration and support between the levels of the linguistic lesson. Each level does not stand alone in itself in order to reach the highest levels of argumentative verification, but rather derives its argumentative characteristic from another linguistic level. The relationship of supply and supply between the sciences is interactive, intertwined and renewable.

Keywords : Qur'anic discourse, Support , linguistic levels, pilgrims.

أولا: المستوى الصّوتي

يعدّ المستوى الصّوتي الأساس الأول، أو العنصر الأول الذي يجب أن يسبق غيره من العناصر في عملية التّناول[1]؛ أي في التحليل والتفسير، "ومادة الصّوت هي مظهر الانفعال النّفسي، هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنوع الصّوت، بما يخرجه فيه من المدّ أو الغنّة أو اللّين، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة على مقادير تناسب ما في خلجات النّفس "[2].

والقرآن الكريم "يمتاز في كل سورة منه وآية، وفي كلّ مقطع منه وفقرة، وفي كلّ مشهد فيه وقصّة، وفي كل مطلع منه وختام بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى مملوءا نغما "[3]، وُظّف بهدف التأثير والتّمكين في المتلقّي بقصد الاستجابة والإذعان.

بناء على ذلك نروم في هذا المستوى إلى مقاربة الايقاع الصّوتي لملفوظ الآية المباركة مقاربة حجاجية، والكشف عن مدى إسهامه في توجيه الآية صوب النّتيجة المرغوبة، وستنطلق هذه المقاربة الحجاجية من الدرس الصوتي عند علماء التّجويد؛ إذ سنحاول أن نبرز حجاجية بعض الظّواهر الصوتية في علم التجويد؛ كظاهرتي المدّ والغنّة، وبعد ذلك سنسلط الضوء على بعض القضايا الصّوتية في الدّرس اللساني الحديث كالإيقاع الكمّي الذي يقوم على توزيع المقاطع الصّوتية، والإيقاع النّبري الذي يعتمد على توزيع المقاطع المنبورة مع نظيرتها غير المنبورة. ثمّ نحاول تجلية خصائصها الحجاجية.

واستصحابنا للدراسة الصّوتية عند علماء التّجويد ليس أمرا اعتباطيا، وإنّما من أجل **الكشف عن عمق العلاقة التساندية التي تربط الدرس الصّوتي عند علماء التّجويد بالدرس الصوتي عند اللسانيين، ومدى تفاعلهما في تشكيل الخطاب الحجاجي في النص القرآني.**

---

[1] - جواد النوري، **"علم الأصوات العربية"**، جامعة القدس المفتوحة، ط 01، 1996م، ص: 12.

[2] - مصطفى صادق الرافعي ،**"إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية"**، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط 09، 1973م، ص: 215.

[3] - صبحي صالح، **" مباحث في علوم القرآن"**، دار الملايين، بيروت، ط 10، 1977م، ص 334.

أ- ***حجاجية إيقاع التجويد***

إنّ لقواعد التجويد وظيفة التّزيين والتوضيح ودقة التصوير، والسّر في ذلك أنّ هذه الغنن والمدود صالحة للتطبيق النغمي والتمويج الصوتي، هذا التنغيم وهذا التمويج الصّوتي النّاشئ من تطبيق هذه الأحكام في حقيقة الأمر يعدّ لونا من ألوان الوقع الصّوتي"1، لذا أمر الحق سبحانه بترتيل القرآن وتجويده على أحسن وجه في قوله جل في علاه: ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا** ﴾2، والترتيل هنا إنما هو "قراءته جهرا في شيء من التّروي، بحيث تستبين حروفه، وتظهر حركاته، فيكون ذلك مدعاة إلى إمعان الفكر فيه، ومن ثمّ الوقوف على أسراره"3، يقول الدرّاز: " دع القارئ المجوّد يقرأ القرآن يرتّله حق ترتيله، نازلا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغنّاتها، واتّصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصّوتية، وقد جرّدت تجريدا، وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التّجريد وجوّد هذا التّجويد"4، فحسن طريقة الإلقاء تظهر فصاحة الألفاظ وجمال التعبير... ممّا يؤدي إلى وضوح المعاني وإبراز الأفكار5، وهنا تكمن حجاجية إيقاع التجويد.

وما يترجم مقتضى هذا القول الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾؛ فقد شكّل الضّغط النّطقي على صوت النّون المشدّد في (إنّما) نغمة صوتية زادت من قوّة القيمة الحجاجية التي يحملها هذا العامل الحجاجي، بل إنّ الغنّة بما تحمله من صدى صوتي قوي نتيجة إدغام النّون الساكنة في النّون المتحركة أسهمت في تفعيل فعل العامل الحجاجي؛ إذ "إنّ من طرائق عرض الخطاب عرضا حجاجيا التّشديد على مقاطع الخطاب من خلال الصّوت"6، **فالأداة (إنما) بوصفها أداة**

---

[1] - عبد الله محمد الجيوسي، **" التعبير القرآني والدلالة النفسية"**، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط 01، 2006م، ص: 165.

[2] - سورة المزمل، الآية04.

[3] - ماجد النجار، **"الدلالة الصّوتية"**، (د. ط)، (د. ت)، ص: 557.

[4] - محمد عبد الله الدراز، **"النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن"**، دار القلم، الكويت، ط 02، 1984م، ص: 102/101.

[5] - فخري محمد صالح، **" اللغة العربية أداء ونطقا وإملاء وكتابة"**، الوفاء للطباعة والنشر، (د. ط)، (د.ت)، ص: 93.

[6] - عبد الله صولة، **" نظريات الحجاج دراسات وتطبيقات"**، مسكيلياني للنشر والتوزيع ، ط 01، 2011م، ص: 35.

للقصر تحوّلت إلى مرتكز موسيقي فضلا عن بلاغة مدلولها بسبب ما تحمله من غنّة تترك أثرا إيقاعيا في أذن المتلقي، وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على عمق التساند والتكامل بين الدرس البلاغي والدرس الصّوتي في إبراز حجاجية القول القرآني.

ولو ورد التعبير القرآني بصيغته الخبرية المجردة من الحصر، لما حقّق هذا التأثير، وهنا تكمن البلاغة القرآنية القائمة على دقّة الانتقاء والاستعمال.

ووصلا بما سبق فإنّ "الغنّة تمثّل تناسقا إيقاعيا في التّلاوة، خاصة وأنّها تتّصل بأكثر أصوات اللغة... وهذا الصّوت في حد ذاته هو صوت موسيقي يشترك في إبراز النّغمة التي تستريح إليها النّفس، وتجعل القارئ يتمهّل عند النّطق بها"[1]، ليكون المستمع متحمّسا ومستعدّا للإصغاء لما سيأتي بعد هذا الضغط النطقي، والقارئ المجيد هو الذي يستطيع تجلية المعاني القرآنية عن طريق الأداء مدّا وغنّة...إلخ، فإذا أحسن القارئ لهذه الآية أداء الغنّة وأعطاها ما تستحقه من الطّول الزمني؛ أي مقدار حركتين حتما سينجذب المتلقي أو المستمع نحو معرفة ما الذي تفيده أداة القصر بجرسها القوي ؟ **فحجاجية الغنّة تتجلى في أنها تمنح القارئ المجال للتّغني بالقرآن، وتمنح للسامع فرصة الإصغاء ليتحقق حسن الفهم والإقناع.**

وفي الآية المباركة ملمح حجاجي أدائي متأتّ من المدّ الذي قفلت به الآية، بعد أن افتتحت بغنّة فتحت مجالا رحبا للإصغاء، والمدّ المشبّع كما هو بيّن في الآية اقتصر على لفظ "العلماء"، وذلك إشعارا بمكانة وعلو شأن العلماء العارفين بالله، وبما أنّ لفظ (العلماء) يشتمل على ألف مدّ يليه همزة فإنّ على القارئ أن يمدّه بمقدار ست حركات، وهو ما يطلق عليه علماء التجويد باصطلاح المدّ الواجب المتّصل، ولاشك أنّ هذا الامتداد الزمني لصوت المدّ يمارس فعله الحجاجي على المستمع، فهو؛ أي المدّ مليء بالثناء

[1] - عبد الله محمد الجيوسي، **" التعبير القرآني والدلالة النفسية"**، مرجع سابق، ص: 177.

والتمجيد للعلماء الذين شكّلوا البؤرة الحجاجية لملفوظ الآية الكريمة؛ "فلطبيعة أداء العبارة، ولطريقة النّطق بها أثر واضح ومهم في صياغة المعنى وتوجيه الدلالة"[1].

إنّ هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن في نصّه إيقاعا آخر طارئا عليه من خلال الأداء والقراءة، فإذا اجتمع الإيقاع الصّوتي والإيقاع التّرتيلي لم يكن للأذن إلا أن تسمع وتنصت وتستمع بالجمال2، قال سبحانه: ﴿ **وَإِذَاقُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤** ﴾[3]

ب- حجاجية إيقاع المقاطع أو الإيقاع الكمّي:

ترى الباحثة أن الدراسة المقطعية تستمدّ قيمتها الحجاجية في الخطاب القرآني، انطلاقا من التناوب الحاصل بين المقاطع الصوتية على مسافات منتظمة متقاربة، بما يمنح الأذن إحساسا بالتوازن الإيقاعي دون رتابة أو جمود، وقدرتها على تحليل الحدث الكلامي المنطوق وفهمه، وكذا من تحسين أداء الجمل والعبارات بصورة تؤثر في السامع، وتحمله على الخضوع والإذعان، ولعل التحليل المقطعي للآية الكريمة يبرهن مقتضى هذا القول.

يقول جل في علاه: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾

الكتابة المقطعية للآية:

إِنْ/ نَ/ مَا/ يَخْ/ شَلْ/ لَا/ هـ/ مِنْ/ عِ/ بَا/ دِ/ هِلْ/ غُ/ لَ/ مَاءْ

ص مص ص/ ص مص/ ص مص مص/ ص مص ص/ ص مص ص/ ص مص مص/ ص مص/ ص مص ص/ ص مص/ ص مص مص/ ص مص/ ص مص ص/ص مص/ ص مص/ ص مص مص ص/

[1] - ممدوح إبراهيم محمود محمد، " **جمال الأداء لأي الذكر الحكيم في ضوء علم الصّوتيات**"، كلية اللغة العربية، فرع أسيوط عمادة البحث العلمي، جامعة الأزهر محمد بن سعود الإسلامية، ص: 07.

[2] - تمام حسان، **" البيان في روائع القرآن دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني"** عالم الكتب، ط 01، (د.ت)،"، ص: 272.

[3] - سورة الأعراف، الآية: 204.

يظهر من الكتابة المقطعية أن الآية تضمنت أربعة أنواع من المقاطع الصوتية موزّعة بالشكل التالي:

- المقطع القصير (ص مص): تكرر ست مرات؛
- المقطع الطويل المفتوح (ص مص مص): ورد ثلاث مرات؛
- المقطع الطويل المغلق (ص مص ص): تكرر خمس مرات؛
- المقطع المديد المقفل بصامت (ص مص مص ص): ورد مرة واحدة؛

وأول ما يلاحظ على هذا التوزيع المقطعي هو هيمنة المقاطع الصوتية القصيرة؛ إذ بلغ عددها ستة مقاطع، وهذا الورود يحمل بين ثناياه أبعادا حجاجية تتجلى أساسا في أنها تمنح القارئ المجال لأخذ النفس أثناء التلاوة؛ لأنها أكثر خفة في النطق إذا ما قورنت بالمقاطع الصوتية الأخرى، ثم إنّ الجهد المبذول في إنتاج هذا المقطع لا يستغرق زمنا طويلا عند النطق به، ومن ثمّ يستطيع القارئ أن يجيد التّلاوة، وأن يعطي لكل صوت ما يستحقه، الأمر الذي يجذب المتلقي إلى حسن الإصغاء لما يُتلى.

وممّا يلاحظ أيضا أنّ الهندسة المقطعية قد أكسبت الآية خاصّياتها الحجاجية نتيجة هذا التناوب المطرد بين المقاطع الطويلة والقصيرة بصورة تألفها الأذن، وتطيب لها النفس.

وختمت الآية المباركة بالمقطع المديد المقفل بصامت (ص مص مص ص) في كلمة (العلماء) عند الوقوف على رأس الآية، وهو مقطع ذو وضوح سمعي عالٍ وثقل ملاحظ في النطق من شأنه أن يجعل القارئ أو السامع يستشعر منزلة العلماء بين سائر الناس، فالمد أضفى الجمال والرونق على هذا المقطع الصوتي.

ت- حجاجية الإيقاع النّبري

إنّ استجلاء القيمة الحجاجية للإيقاع النّبري داخل ملفوظ الآية الكريمة، يقتضي منّا استثمار بنيتها المقطعية التي رأينا سلفا؛ لأنّ دراسة النّبر تستلزم بالضرورة استحضار المقطع، فالنّبر قرين المقطع ويتحقّق فيه.

واستنادا إلى قواعد النّبر التي ذكرها " تمام حسّان" في كتابه: " اللغة العربية معناها ومبناها"، فإن النّبر يقع في المواضع التالية:

"إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ"

إِنْ/ نَ/ مَا/ يَخْ/ شَىٰ/ لَا/ هـ/ مِنْ/ عِ/ بَا/ دِ/ هِلْ/ عُ/ لَ/ مَاءْ

ص مص ص/ ص مص/ ص مص مص/ ص مص ص/ ص مص ص/ ص مص مص/ ص مص/ ص مص ص/ ص مص/ ص مص مص/ ص مص/ ص مص ص/ص مص/ ص مص/ ص مص مص ص/

إنّ جوهر الخطاب الحجاجي للآية المباركة يدور حول فكرة مفادها أنّ العلماء هم أحقّ النّاس بخشية الله، وأنّ الخشية متحقّقة في العلماء دون غيرهم، والذي يعضّد هذا الطّرح الحجاجي من زاوية صوتية هو الإيقاع النّبري الذي تخلّل ثنايا المقاطع الصوتية، ممّا أضفى على إيقاع الآية نوعا من التّوازن والحسن بسبب التّناوب القائم بين مقاطع منبورة وأخرى غير منبورة.

من جهة أخرى أسهم النّبر على بعض المقاطع الصّوتية في شحن الكلمات بطاقات حجاجية تزيد المعنى جلاء وترسيخا في الأذهان؛ " لأنّ الإيقاع يدعّم الكلمة الشّفاهية المرتّلة في فرض سحرها على المتلقّي"[1]، ويظهر هذا الدّعم الإيقاعي من أوّل مقطع افتتحت به الآية المباركة؛ إذ نجد أنّ النّبر اقترن بالمقطع الطويل المقفل بصامت (إِنْ = ص مص ص) من الكلمة (إنّما)، وهذا الضّغط النّطقي من شأنه

[1] - أحمد البايبي، **"القضايا التطريزية في القراءات القرآنية"**، مرجع سابق، ج02، ص: 234.

أن يزيد من فيض حجاجيّة العامل الحجاجي (إنّما)، وأيضا في إبراز قوّته الحجاجيّة المتمثّلة في تقييد فعل الخشية وحصره في العلماء دون غيرهم.

ووصلا بما سبق قُفل إيقاع الآية بنبر وقع على المقطع المديد المقفل بصامت (ماء= ص مص مص ص) من كلمة (العلماء)، وهذا النّوع من النّبر يطلق عليه بنبر الطّول المصوّتي؛ لارتباطه بالمصوّتات، والنّبر على هذا المقطع يستلزم نفسا وزمنا طويلا ممّا يكافئ أنّ خشية الله تستلزم علما عميقا بالله وبكونياته، وهكذا حينما تلتحم البنية الحجاجيّة مع البنية المقطعية تضفي على المقاطع المنبورة قيمة حجاجيّة، فتصبح متمكّنة في موضعها لتبرز النتيجة معمّقة أثرها في ذهن السامع.

ثانيا: المستوى الصرفي

الفعل في اللغة العربية ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب زمن الحدوث وهي: الفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر، ولكل فعل قواعده الإعرابيّة التي تميّزه، ووظيفته داخل الخطاب، " والزمان والمكان اللّذان يتلفّظ بهما المرسل عنصران هامّان في إيصال المعنى المطلوب"[1]، ومن ثمّ يحقّق المرسل تأثيره على المتلقّي.

وحديثنا في هذا المستوى سينصبّ على الفعل المضارع؛ لأنه من الأفعال التي سخّرها التّعبير القرآني للآية الكريمة؛ لما له من أثر بليغ على المتلقّي، وتحفيزه على متابعة الأحداث والوقائع، علما أنّ " الحدث في الفعل المضارع يتحقّق في اللّحظة أو اللّحظات التي يعيشها، أو يقصد تصويرها المتكلّم، وهو بتلك الخاصّية أقرب إلى أن يكون صورة قريبة من النفس ماثلة أمام الحسّ"[2]، وهنا تتمظهر الخاصّية الحجاجيّة للفعل المضارع والمتمثّلة في قدرته الفائقة على تقريب المعاني إلى الأذهان ووصف نتيجة الخطاب التي يروم المرسل تبليغها، كما هو بيّن بجلاء في قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ**

[1] - أحمد صالح شاهين، **"النظرية التداولية و أثرها في الدراسات النحوية"**، عالم الكتب الحديث، ط 01، 2015م، ص: 16.

[2] - حسن طبل، **" المعنى في البلاغة العربية"**، دار الفكر العربي، ط 01، 1998م، ص: 170.

ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾؛ إذ إنّ مجيء الفعل (يخشى) بصيغة المضارعة فيه إشارة حجاجيّة تفيد التّجدّد والاستمرار؛ بمعنى أنّ خشية العلماء لله ربّ العالمين خشية دائمة ومتجدّدة بتجددّ النظر والتّأمل في هذا الكون، " والتّجدّد والدّيمومة محرّكات زمنيّة داخل الخطاب يجعلان المتلقّي ينتبه".[1]

إنّ صيغة المضارعة كانت هي الأنسب حجاجيّا؛ لأنها استطاعت أن تصف طبيعة وحركيّة خشية العلماء لله، فالقارئ أو السامع لا يكفيه أن يعلم أنّ الخشية حاصلة ومتحقّقة في العلماء...، بل يزداد تأثيرا وإقناعا لمّا يعلم أنّ هذه الخشية متجدّدة ودائمة، ومن ثمّ يلامس حركيّة هذه الخشية.

وممّا أسهم في استجلاء الملمح الحجاجي للفعل (يخشى) هو مجيء الأفعال التي ترد قبله في نفس السّياق بصيغة الماضي ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ** ﴾؛ إذ يقتضي السّياق بموجب المطابقة الزّمنيّة أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد، لكنّ الالتفات من الماضي إلى المضارع فيه زيادة التّأثير والإقناع، من خلال تحريك العواطف واستنهاض العقل، وحثّه على التّأمل والتّدبر في جمالية هذا الإبداع الكوني، والذي يبدأ بإنزال الماء، وإخراج الثّمرات المختلفة الألوان، ومعرض الألوان هنا لا يقتصر على الثّمار فحسب، بل يشمل الجبال والنّاس والدّواب والأنعام، واللّون هنا مقصود للتأثير الوجداني[2]؛ "إذ يستثير ذكر اللّون حاسة البصر الخاصّة والمكلّفة بتوصيل ذبذبات اللون الإيقاعية إلى المخ، وذلك من جراء استثارة المراكز العصبية و تحريكها بواسطة التّخييل لا التّشكيل المباشر"[3].

---

[1] - مثنى كاظم صادق، **" أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظيروتطبيق على السور المكية"**، منشورات الاختلاف، ط 01، 2015م، ص: 194.

[2] - كان التراث البلاغي على وعي بجمالية الألوان وأبعادها الإيحائية في النص الأدبي عندما تتبّع البلاغيون الظاهرة تحت مصطلح التدبيج، والتدبيج هو " استخدام المتكلم الألوان (الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأبيض...) تورية أو كناية عن معنى يقصده". (ينظر: السّيد جعفر السيد باقر الحسيني، أساليب البديع في القرآن، مؤسسة بوستان كتاب، ط 01، 1425هـ ، ص: 276.

[3] - بشرى البستاني، " جدلية اللون في شعر خليل حاوي"، مجلة آداب الرافدين، العدد 25، 993، ص: 165.

وهكذا فمن أعمل عقله وبصره في هذا الإبداع ارتقى وترقّى إلى منازل العلماء، وبالنّتيجة تتحقّق الخشية لفاطر الأرض والسماء، إذن استحقاق هذا العمل القلبي يستلزم علما ومعرفة وتبصرا بكونيات الله، والشكل أسفله يوضح ذلك:

يستلزم

الرقي إلى منازل العلماء ⟵ علما، تأملا...في الكون

(نتيجة) (حجة)

ثالثا: المستوى المعجمي - الدلالي

"المعجم هو الملاذ اللغوي الأهمّ في تشكيل الخطاب الحجاجي لدى كل المتحاجّين، فمن رحم هذا المعجم تتناسل الألفاظ في ذاكرة المتكلّم، ذلك أنه كلما حفلت ذاكرة المتكلم بالألفاظ المعبرة عن فكرته، وتراتبت لديه صياغة حججه من خلالها استطاعت استمالة المتلقّي، وامتلاك دهشته واقناعه"[1]، ويعتبر المعجم أيضا مخزنا يمدّ كلا المتحاجّين المتشاركين في المقام الحجاجي بما يحتاجه من الكلمات والألفاظ التي تسعف في بناء الحجّة، وتقديمها خادمة للفكرة[2].

من ثمّ نهدف في هذا المستوى إلى الكشف عن حجاجية المفردة القرآنية، ودورها في توجيه الخطاب وجهة حجاجية، وذلك من خلال استنطاق دلالتها داخل فلك التركيب الذي ترد فيه، والكلمة حجاجيا كما يعرفها " عبد صولة" هي " الوحدة المعجمية- الصرفية الإعرابية معا القابلة لأن تكتسب بالإضافة إلى معناها المعجمي سمات دلالية إضافية من خلال علاقتها بالمقال الذي ترد فيه، وبالمقام الذي تستعمل فيه، وهي قادرة في الوقت نفسه على التأثير في ذلك المقال والمقام بفضل ما لها من قيم دلالية مختلفة،

[1] - محمد سعد الدكان، **" الدفاع عن الأفكار تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري "**، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط01، 2014م، ص: 173.

[2] - نفسه، ص: 173.

بعضها مستمد من اللّغة نفسها، وبعضها الآخر متأتّ من الاستعمال والتّداول"[1]؛ فهو يرى أن المفردة قد تكتسب إضافة إلى دلالتها المعجميّة دلالات حجاجية مستمدّة من المقام أو السياق الذي ترد فيه، كما تستطيع أن تؤثّر في المقام بفضل ما تتمتّع به من خصائص في ذاتها تستمدها من اللّغة نفسها.

والمتأمّل في القرآن الكريم يجده دقيقا في انتقاء ألفاظه، حريصا على وضع كلّ مفردة في مكانها المناسب، وكلّ مفردة مستقلّة بظلالها الخاصّة بها لتؤدي الدّلالة المقصودة، وقد فطن الجاحظ إلى دقّة التعبير في اختيار ألفاظه حينما قال: " وقد يستخفّ النّاس ألفاظا، ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظّاهر، والنّاس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع حالة القدرة والسلامة".[2]

إنّ اختيار كلمات معيّنة في الخطاب لا يكون بشكل اعتباطي، وإنّما لتحقيق غايات حجاجيّة قصد بلوغ مقاصد دلالية، وبالنّتيجة يتحقّق إقناع المخَاطب بمضمون الخطاب الحجاجي؛ فلو تأملنا قوله جل وعلا: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ سيظهر أنّ القيمة الحجاجيّة المعجميّة لملفوظ الآية المباركة تكمن في توظيف التعبير القرآني لكلمة (الخشية)؛ نظرا لما تكتنزه هذه المفردة من شحنات حجاجية قادرة على إثبات تفرّد الحقّ سبحانه بالإجلال والعظمة، وأنه تعالت صفاته المختصّ بالخشية دون سواه، و"الخشية أعلى مرتبة من الخوف مأخوذة من (شجرة خشيّة) إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم (ناقة خوفاء)، إذا كانت بها داء، وذلك نقص وليس بفوات، ومن ثمّ خصّت (الخشية) بالله؛ لأن خوف الله ينبغي أن يكون في أعلى المراتب ومنه قوله عليه الصّلاة والسّلام: أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية"[3]، والخشية أيضا خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى

---

[1] - عبد الله صولة، **" الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية "**، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ط 01، 2007م، ص: 68.

[2] - الجاحظ، **" البيان والتبيين"**، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 07، 1997م، ج 01، ص: 20.

[3] - عبد الفتاح لاشين، **" من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة"**، مرجع سابق، ص: 65.

منه"1، وقال "الحرالي": " والخشية وجل نفس العالم ممّا يستعظمه"2، فاختيار التّعبير القرآني للفظ (الخشية) في هذا المقام كان هو الأنسب لتحقيق الغاية الحجاجيّة؛ " لأنّ نجاعة الحجاج تعني في المطلق حسن الانتقاء3 وسلامة الاختيار"4، كما "أنّ المحاجج يستطيع أن يجعل المعنى وما يتعلّق به من مقتضى مرتكز الحجاج في الخطاب، من خلال حسن التوظيف والاستخدام؛ إذ يتفاعل المعنى المعجمي مع مقتضاه في فضاء القول الحجاجي ليولد فعلا إقناعيا ذا طاقة حجاجية يقوم على ركن لغوي متين."5

ولو جاء التعبير القرآني بلفظ (الخوف) مثلا لما تحقّق التأثير والإقناع الذي حقّقه لفظ (الخشية)؛ لأن الخوف " حال يحصل القلب عند توقّع حدوث أمر مكروه في المستقبل"6، أمّا الخشية فهي تنسب لله وحده، "فجمال الكلمة القرآنية ينشأ من علاقة الدّال بالمدلول وتفرّدها بالموضوع واستيعابها له، واتسامها بالغاية القصوى في التأثير من خلال صيغتها وظلالها الخاصّة في القرآن، و إيجازها للمعاني الكثيرة ، ورفعتها في مخاطبة الإنسان."7

إنّ انتقاء كلمة (الخشية) لذو قيمة حجاجية تأثيرية من خلال ما تحمله في مقتضاها الدلالي، الأمر الذي أهّلها أن تكون هي الأقوى حجاجيا كما يبيّن الشكل التالي:

---

[1] - الراغب الأصفهاني، **" المفردات في غريب القرآن"**، ج01، ص: 198.

[2] - تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، تقديم وتحقيق: حمادي بن عبد السلام الخياطي، ط 01، 1997م، ص: 234.

[3] - **الإنتقاء** قانون حجاجي عام يعني الاختيار الدقيق والواعي لدقائق الخطاب قبل قضاياه الكبرى (ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص: 102).

[4] - سامية الدريدي، **" الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه"**، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط 02، 2011م، 41.

[5] - أمال يوسف المغامسي، **"الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية"**، الدار المتوسطة للنشر، ط 01، 2016م، ص: 208.

[6] - محمد محمد داود، **" كلمات القرآن والتطور الدلالي"**، دار النهضة، مصر، 2020م، ص: 120.

[7] - أحمد ياسوف، **"جمالية المفردة القرآنية"**، دار المتنبي، ط 02، 1999م، ص: 20.

ن= الخشية أقوى حجاجيا من الخوف

- "الخشية أعلى مرتبة من الخوف" (عبد الفتاح لاشين)

- "الخشية وجل نفس العالم ممّا يستعظمه" (الحرالي)

- "الخشية خوف يشوبه تعظيم" (الراغب الأصفهاني)

هكذا تبدو دقة الاستعمال القرآني واضحة من خلال انتقاء بعض المفردات التي تتناسب مع السّياق فالألفاظ قد تكون متقاربة في المعنى، لكن العدول1 إلى لفظة أخرى دون غيرها من الكلمات، إنّما يكون لتحقيق غايات حجاجية إقناعية.

رابعا: المستوى التركيبي

المستوى التركيبي من أنسب المستويات اللسانية التي تتيح للمتكلم ممارسة فعله الحجاجي على نحو فعّال يساعد على استمالة المتلقي، وحمله على الخضوع والإذعان، وذلك عن طريق مخالفة النمط الأصلي للكلام، إما بالحذف، أو التقديم والتأخير، أو الفصل والوصل...إلخ.

إنّ التغيير في أجزاء الكلام يعدّ من أنجع الاستراتيجيات الحجاجية التي تستهدف إثارة انتباه المتلقي والاستحواذ على عقله والسّيطرة على مشاعره، والتركيب القرآني تركيب محكم، معجز، نُظم بطريقة محكمة ومضبوطة، خضعت جمله لهندسة دقيقة تحمل بين أجزائها أبعادا حجاجية تأثيرية.

---

[1] - يرى بيرلمان أنّ بين وحدات اللّغة تفاوتا في درجة التعبير حجاجيا عن فكرة ما؛ بحيث يُعتمد التعبير بالعنصر (أ) دون العنصر (ب) تطبيقا لقانون **الأنفع حجاجيا**، فاختيار المتكلم ألفاظه للتعبير عن أفكاره قلما يكون اختيارا لا تتحكّم فيه غايات حجاجية خصوصا حين يكون اللفظ (أ) الذي وقع عليه الاختيار لفظا فيه عدول عن الكلام العادي، فباستخدام هذا اللفظ القائم على العدول يقع التنبيه إلى مقصد المتكلم الحجاجي، وإن كان استخدام اللفظ العادي الذي لا يكون فيه عدول عن الكلام العادي ربما كان هو أيضا علامة حجاج ومستخدما من أجل الحجاج. (ينظر: عبد الله صولة، " نظريات الحجاج دراسات وتطبيقات"، ص : 79).

فإذا تأملنا لسانيا في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَؤُاْ** ﴾ سيظهر أنّ الجملة القرآنية خضعت لإجراء تركيبي هو التقديم والتأخير؛ إذ قُدّم المفعول الذي هو الله عز وجل، وأُخّر الفاعل؛ أي العلماء، فالأصل في الجملة الفعلية أن يتقدّم الفعل ويليه الفاعل ثمّ المفاعيل، فيكون التركيب على النحو التالي: إنما يخشى العلماءُ اللهَ ، لكنّ التعبير القرآني لجأ إلى مخالفة النمط الأصلي للكلام، فما هو السر في ذلك؟

الجواب أنّ كلّ تقديم وتأخير في القرآن الكريم، "إنّما هو على حكمة بالغة، وقدرة فائقة، ليس فيها ما يُفسد المعنى، وإنّما فيه الواضح الجلي البليغ، وليس هناك ما يقوم مقامه، فكأنّ المعنى يقتضي ما تقدّم أو تأخّر اقتضاء طبيعيا، بما يوثّر في المتلقّي تأثيرا واضحا"[1]، والتقديم والتأخير في الآية المباركة جيء به لتحقيق وظائف حجاجية قوامها بيان لعظيم منزلة العلماء بين سائر النّاس، يقول ابن كثير(ت774ه): " إنّما يخشاه حقّ الخشية العلماء العارفون به؛ لأنه كلّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلّما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل"[2].

إنّ القيمة الحجاجية لهذا الإجراء التركيبي تنبع أساسا من انتهاكه لنظام الرتبة النحوية؛ الشيء الذي أسهم في توجيه الخطاب وجهة حجاجية، ومنحه قوّة تأثيرية قادرة على لفت انتباه المتلقّي نحو بنية الملفوظ بغية الوصول إلى المعنى المقصود ومن ثمّ يتحقّق الإقناع المطلوب، ولو جاء التركيب القرآني على نمطه الأصلي لما حقّق أثار الانتباه بالشكل الذي حقّقه العدول، ولما أسهم في تأدية الغرض الذي من أجله نزلت الآية، يقول الجرجاني (ت 471ه): " تقديم اسم الله تعالى إنّما كان لأجل أنّ الغرض أن يبيّن الخاشون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصّة دون غيرهم، ولو أُخّر ذكر اسم (الله) وقدّم (العلماء) فقيل: إنما يخشى العلماء الله لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشي من هو، والإخبار بأنّه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا

---

[1] - محمد كريم الكواز، **"الأسلوب في الاعجاز القرآني"**، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط 01، 1426ه ، ص: 309.

[2] - ابن الكثير القرشي الدمشقي (ت 774ه) ، **" تفسير القرآن العظيم"**، دار ابن حزم للطبع والنشر والتوزيع، 2000م، ص: 1554.

مخصوصين بما هو الغرض في الآية، بل يكون المعنى أنّ غير العلماء يخشون الله تعالى أيضا، إلا أنّهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله"[1].

يستفاد ممّا سبق **أنّ مخالفة النمط الأصلي في هندسة الجملة القرآنية يُشكّل تدفّقا حجاجيا يفيض جمالا وتأثيرا بشكل يُسهم في توجيه المعنى نحو النتيجة التي يبتغيها المخاطب من كلامه، كما يسهم هذا التغيير في مواقع البناء اللغوي في إثارة وتنشيط ذاكرة المخاطب وتحفيزه على استثمار كفاءته التأويلية بغية الوصول إلى الفهم السليم، مع ضرورة مراعاة خصوصية النص المقدس.**

خامسا: المستوى التداولي:

يُعنى هذا المستوى بتتبّع كلّ المعطيات اللغوية والخطابية المتعلّقة بالتّلفظ، وبخاصة المضامين التي يولّدها الاستعمال في السّياق، " ثم إنّ العلاقة بين اللّغة والسّياق علاقة أساسية في التحليل اللغوي التّداولي؛ لأن فهم المعنى يتطلّب أكثر من مجرّد معرفة الدّلالة اللّغوية لعلامات التركيب اللغوي، بل يجب دمج التركيب اللغوي بالمعنى السّياقي، فالتداولية مهتمة بالتراكيب اللغوية ملفوظة في سياقها"[2]، وعليه سيرتكز حديثنا في هذا المستوى على عنصرين أساسين ألا وهما: السياق وخاصّة السّياق القرآني؛ إذ سنحاول أن نجلي وظيفته الحجاجية داخل ملفوظ الآية المباركة التي نحن بصدد مقاربتها، و نكتشف مدى إسهامه في توجيه الخطاب وجهة الخطاب وجهة حجاجية مادام هذا المستوى "يبحث عن مدى استيفاء القول لشروط المقام وقدرته التّأثيرية"[3]، كما سنتناول أيضا في هذا المستوى حجاجية العامل الحجاجي " إنّما" الذي تصدّر ملفوظ الآية الكريمة ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ ، علما "أنّ ديكرو و أنسكومبر" قدّما تصوّرا أكثر إجرائية يقوم على إدماج المظهر التّداولي في الدلالة، فالتّداولية

[1] - الجرجاني، **"دلائل الاعجاز"**، قرأه وعلّق عليه: أبو فهد محمود محمد شاكر، (د. ط)، (د.ت)، ص: 393.

[2] - أحمد فهد صالح، **" النظرية التداولية و أثرها في الدراسات النحوية المعاصرة"**، مرجع سابق، ص: 03.

[3] - رضوان الرقيبي، **" الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله"**، مجلة عالم الفكر، م 40، 2011م، ص: 88.

المدمجة بهذا الاعتبار بحث في الجوانب التّداولية المسجّلة في بنية اللّغة ودلالة الجملة لاستخراج الأشكال اللغوية ذات القيمة التّداولية1.

أ- **السياق (contexte)**

شغلت نظرية السّياق مجالا واسعا في الدرس اللغوي المعاصر، كما ارتبط السّياق بجهود كثير من علماء اللّغة والبلاغة، وعلماء التّفسير، حتى صارت نظرية متكاملة على يد العالم الانجليزي "فيرث "، ويمكن تلخيص نظرية "فيرث" في أنّها تنظر إلى المعنى على أنه وظيفة في السّياق، وهو ما عدّ تحولا في النّظر إلى المعنى، بعد أن كان يوصف بأنّه علاقة بين اللّفظ وما يحيل عليه في الخارج، أو في الذهن من حقائق و أحداث2.

وممّا لا شك فيه أن السياق القرآني يعدّ من أبرز القرائن المعينة على فهم معاني النّص فهما سليما، والوقوف على مراميه، يقول ابن القيّم (ت 751ه) رحمه الله في رحاب هذا الطّرح: "السّياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير مراد المتكلم، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدّلالة فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته"3، وقد أشار الدكتور "يوسف القرضاوي" أيضا في كتابه " كيف نتعامل مع القرآن؟" إلى أهمية مراعاة السّياق في الفهم السليم للنّص القرآني وصحة تفسيره حينما قال: " ومن الضوابط المهمّة في حسن فهم القرآن ، وصحة تفسيره: مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أن تُربط الآية بالسّياق الذي وردت فيه، ولا تقطع عمّا قبلها وما بعدها، ثمّ تجرّ جرّاً، لتفيد معنى، أو تؤيد حكما يقصده قاصدا"4.

---

[1] - رضوان الرقيبي، **" الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله"**، ص: 89.

[2] - حسني خاليد، **"مدخل إلى اللسانيات المعاصرة"**، (د. ط)، (د. ت)، ص: 45.

[3] - ابن القيم، **" بدائع الفوائد"**، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، (د. ط)، (د. ت)، 9/4.

[4] - يوسف القرضاوي، **" كيف نتعامل مع القرآن العظيم** ؟"، دار الشروق، ط 01، 1999م، ص: 238.

بناء على هذه الأقوال ترى الباحثة **أن وظيفة البيان والفهم ، وإجلاء المعنى الموكولة للسّياق القرآني هي التي تمنحه طابعا حجاجيا، ثمّ إنّ مراعاة السّياق في الخطاب يسعف في تحديد طاقة النص الحجاجية، ومن ثمّ في تحديد قدرته الاقناعية**، و الآية التي بين أيدينا تترجم مقتضى هذا الطرح ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَؤُاْ** ﴾ ؛ "إذ اقتضى سياق المعنى تقديم المفعول على الفاعل، فلا يصحّ إلا به وذلك أنّه سبحانه قال: ﴿ **لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** (28) ﴾ فعدّد آياته وأعلام قدرته، وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، وأتبع ذلك " إنما يخشى الله من عباده العلماء" بتقديم "الله" على معنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم؛ لأنّهم الذين يعرفونه حقّ معرفته، وقد مضى السّياق على تعديد آيات قدرته فناسب تقديم المفعول اقتضاء السّياق".[1]

فالملاحظ أنّ السّياق القرآني حرّك المفعول الحجاجي للتركيب ؛ بمعنى آخر أنّ التقديم والتّأخير الذي خضعت له هندسة الجملة القرآنية قد استمدّ خاصّيته الحجاجية انطلاقا من السّياق الذي ورد فيه، ممّا جعل التركيب يحقّق نجاعته الحجاجية، "فالسّياق قوّة تحرك التّركيب فتبعث من إشاعاته ما يلائم"[2]،

إنّ السّياق المصاحب للتّلفظ هو ما يُملي على المتكلّم اختيار أنماط تركيبية دون غيرها، ممّا يجعل الحجاج في شكله النّهائي ترجيحا من بين خيارات بواسطة أسلوب هو في ذاته عدول عن إمكانات لغوية إلى أخرى يتوقّع أنّها أكثر نجاعة في مقام معيّن[3] ولم يقتصر الدّور التساندي للسّياق على المستوى التركيبي

---

[1] - محمد كريم الكواز، **" الأسلوب في الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم"**، مرجع سابق، ص: 321.

[2] - زيد عمر عبد الله، **" السّياق و أثره في الكشف عن المعاني"**، مجلة جامعة الملك سعود، مج 15، 2003م، ص: 847.

[3] - الحجاج عند بيرلمان، مقال ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج02، ص: 180.

فقط، بل تجاوزه إلى جميع المستويات اللسانية التي تضمّنها القول القرآني؛ فمثلا في المستوى المعجمي تبيّن لنا سلفا كيف حقّقت كلمة "الخشية" نجاعتها الحجاجية من خلال ما تحمله من مقتضى دلالي أهّلها أن تكون هي المفردة الأقوى حجاجيا، لكن لا يجب إغفال أهمية الدعم الحجاجي الذي أضفاه السّياق القرآني للمستوى المعجمي؛ إذ إنّ السّياق هو المتحكّم في انتقاء كلمة دون غيرها، وهو الذي يكسبها قوة في التعبير ويزيد من تفعيل قوتها الحجاجية؛ فكلمة " الخشية" اكتسبت خاصّيتها الحجاجية نتيجة ورودها ضمن سياقات حجاجية تفيد التذكير بآلاء الله وقدرته على الإبداع وتصميم هذا الكون وتنسيقه في أحسن صورة ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**(28) ﴾ ، يقول الشيرازي : "تولّدت الخشية نتيجة سبر أغوار الآيات الآفاقية والأنفسية، والتّعرف على حقيقة علم وقدرة الله وغاية الخلق" .1

جدير بالذكر أن الحجّة التي يولّدها السّياق تسمى – حسب أبو بكر العزاوي – بالحجّة السّياقية، فالعنصر الدلالي الذي يقدّمه المتكلّم باعتباره يؤدّي إلى عنصر دلالي آخر، فإنّ السّياق هو الذي يصيره حجّة، وهو الذي يمنحه طبيعته الحجاجية"2.

نخلص ممّا سبق ذكره **أنّ للسياق القرآني أثر بليغ في تدعيم الخطاب القرآني حجاجيا ، وفي تحديد قدرته الاقناعية، كما يسمح السّياق أيضا في انسجام النّص القرآني وتماسكه وفي الحفاظ على بنائه وفهمه فهما سليما.**

---

[1] - ناصر مكارم الشيرازي، **" الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل مع تهذيب جديد"**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ج 11، ط 01، 2013م، ص: 56.

[2] - أبو بكر العزاوي، **" اللغة والحجاج"** منتديات سور الأزبكية، ط 01، 2006م، ص: 19.

ب- العامل الحجاجي (**l'opèrateur argumentative**)

تعدّ العوامل من الآليات اللغوية التي يرتكز عليها التحليل الحجاجي التداولي للخطاب " لأنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون في قول ما"[1]، ومن العوامل التي تعمل عملها في الخطاب وتوجّهه وجهة حجاجية العامل الحجاجي (إنّما)، هذا الأخير "يكون موجبا لإثبات ما بعده بحصره وتقديمه ونفيه الضمني لما سواه بتحويل الخطاب إلى بنية مقيّدة بالإثبات مرتبطة به، من خلال تفعيل النّص حجاجيا وهيمنته على مساحة واسعة منه"[2]، والآية المباركة التي بين أيدينا تبرهن ذلك ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، فقد نهض العامل الحجاجي (إنما) بدور حجاجي قائم على مبدأي " الإثبات" و " النفي"؛ إذ أثبت هذا العامل حقيقة تفرّد العلماء بخشية الله، أنهم أحقّ النّاس بذلك، ونفى حصول الخشية من غير العلماء، فالعامل الحجاجي نفى هذه الشركة وقصرها على العلماء فقط، يقول صاحب التحرير والتنوير: " والقصر المستفاد من إنّما قصر إضافي؛ أي لا يخشاه الجهّال وهم أهل الشّرك، فإنّ من أخصّ أوصافهم أنّهم أهل الجاهلية؛ أي عدم العلم، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشية الله"[3]. هكذا قيّد العامل الحجاجي فعل الخشية بالعلماء دون غيرهم، ونفى الخشية عن غيرهم.

وقد أسهمت "من" التّبعيضية في إثراء وتفعيل حجاجية العامل " إنّما" من خلال ما تحمله من طاقة قادرة على حصر فعل الخشية على فئة معيّنة ومخصوصة، وهم العلماء " أصحاب النّظر الذين أضاء نور العلم والمعرفة كلَّ وجودهم بنور الله والإيمان والتقوى، والذين هم أشدّ النّاس ارتباطا بتكاليفهم مع ما يستشعرونه من عظمة المسؤولية إزاءها"[4].

---

[1] - أبو بكر العزاوي، **" اللغة والحجاج**، مرجع سابق، ص: 27.

[2] - مثنى كاظم صادق، " أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية"، مرجع سابق، ص: 114.

[3] - ابن عاشور، **" التحرير والتنوير"**، الدار التونسية للطبع والنشر، (د. ط)، 1984م، ج 22، ص: 304.

[4] - ناصر مكارم الشيرازي، **" تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل"**، مرجع سابق، ج 11، ص: 57.

وجدير بنا في هذا المقام أن نشير إلى أهمية الخطاب التفسيري ودوره الفعّال في تزكية التحليل اللساني الحجاجي للآية المباركة، لا سيما خطاب الوصف الذي تخلّل أقوال المفسّرين لفائدة "العلماء" الذين شكّلوا البؤرة الحجاجية داخل الخطاب، فالوصف الذي قدّمه المفسرون أسهم في إضاءة المسار الحجاجي للآية المباركة، وأيضا في توجيه الخطاب برمّته صوب النتيجة المرجوة ألا وهي " العلماء مؤهلون لخشية الله"، مع العلم "أنّ الوصف في الخطاب الحجاجي يأتي خادما للفكرة من حيث احتواؤه على طاقة لغوية إقناعية في تلك الألفاظ الواصفة للأفكار والأشخاص والمظاهر والأحداث[1]"

ويمكن تمثيل حجاجية الخطاب التفسيري وفق الشكل التالي:

ن= العلماء مؤهلون لخشية الله

- **<u>تفسير ابن كثير</u>:** " إنما يخشاه حقّ الخشية **العلماء** العارفون به؛ لأنّه كلّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم...كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل."
- **<u>تفسير الشيرازي</u>:** "**العلماء** هم أصحاب النّظر الذين أضاء الله العلم والمعرفة كلَّ وجودهم بنور الله والإيمان والتقوى، والذين هم أشدّ النّاس ارتباطا بتكاليفهم مع ما ستشعرونه من عظمة المسؤولية إزاءها".
- **<u>تفسير السيّد قطب</u>:**" **العلماء** هم الذين يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، ومن ثمّ يخشونه حقا، ويعبدونه حقا، لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم."

[1] - محمد سعد الدكان،" **الدفاع عن الأفكار تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري**"، مرجع سابق، ص: 187.

إنّ حضور الخطاب التفسيري في التحليل اللغوي الحجاجي يسهم بشكل فعّال في تزكيته وفي إبراز مقصديته، كما أنّ حضوره يعدّ بمثابة مناعة تحفظنا من الوقوع في متاهة التّأويلات الاعتباطية، وهذا ما يبرز بجلاء تكامل العلوم الشّرعية، وخاصّة علم التّفسير مع العلوم اللغوية في خدمة النّص القرآني.

خاتمة

بعد استنطاق القيمة الحجاجية لملفوظ الآية المباركة داخل فلك المستويات اللسانية، تأتي مرحلة استجلاء مظهر التساند والتكامل بين مستويات الدرس اللّساني، وإن كان هذا التساند قد تخلّل ثنايا التحليل؛ لأنّه يصعب أحيانا النّظر في مستوى لساني واحد دون استثمار غيره.

وتتمظهر هذه العلاقة التساندية التكاملية بداية في المستوى الصّوتيّ؛ إذ شكّل النبر على المقطع الصّوتي الطويل المغلق (إن = ص مص ص) من أداة القصر " إنّما" نبرة موسيقية أكسبت هذا المقطع جمالية صوتية، لكنّ هذا الضغط النّطقي لا يكفي وحده ليبلغ هذا المقطع غاياته الحجاجية، بل يجب على القارئ أن يُتبِع هذا النّبر غنّة بمقدار حركتين لتزيد من فيض جمالية المقطع المنبور، وإذا اجتمع النّبر والغنّة لم يكن للأذن إلا أن تستمتع بروعة وعذوبة هذا المقطع، وبالنّتيجة يتحقق الاقناع والتأثير، فالغنّة دعّمت النّبر في أداء وظيفته الحجاجية، وهنا يتجلى التساند بين الدرس الصّوتي عند اللسانيين، والدّرس الصّوتي في علم التّجويد، من ثمّ يمكن القول إنّ مبعث جمال الإيقاع القرآني لا يتأتى من النّبر والتّنغيم والفاصلة... فحسب، وإنّما من تساند والتحام هاته القضايا بقضايا الدرس الصوتي عند علماء التّجويد.

إنّ الخطاب الذي يحتوي على العوامل الحجاجية هو خطاب الحجّة والبيّنة؛ لأنّ العوامل تقوم بتقييد حصر الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما؛ كالعامل الحجاجي (إنّما) الذي تصدّر ملفوظ الآية المباركة؛ إذ نهض هذا العامل الحجاجي بدور حجاجي قائم على حصر وتقييد فعل الخشية في العلماء دون غيرهم، وممّا زاد من تفعيل فعل العامل الحجاجي النّبر هو الإيقاع: إيقاع النّبر وإيقاع الغنة؛ حيث

أسهمت هذه الظّواهر الصّوتية في زيادة تفعيل وبروز قوة العامل الحجاجي ليبلغ أعلى درجات التحقق الحجاجي، فالإيقاع هو الذي يدعّم الكلمة الشفاهية، واللّغة المنطوقة هي القادرة على حمل التعابير التي يريد المتكلم أن يبلغها، ، وهذا القول يترجم بجلاء تساند المستوى الصّوتي والتداولي البلاغي في إبراز حجاجية القول القرآني.

بينّ التحليل الحجاجي اللساني أيضا أنّ القيمة الحجاجية للمستوى المعجمي في ملفوظ الآية المباركة تكمن في توظيف التّعبير القرآني كلمة "الخشية"؛ نظرا لما تحمله هذه المفردة من مقتضى دلالي أهّلها أن تكون هي الأقوى حجاجيا، لكن لا يجب إغفال الدّور التساندي للسّياق القرآني، فكلمة الخشية استمدت خاصياتها الحجاجية نتيجة ورودها ضمن **سياقات حجاجية** تفيد التذكير بآلاء الله عز وجل.

إن السّياق هو ما يُملي على المتكلم اختيار الأصوات، والمفردات، والتراكيب... المناسبة للمقام الحجاجي، والتركيب القرآني بدوره هو المسؤول عن بروز جمالية المفردة القرآنية وهو الذي يُسعف في تحديد طاقتها الحجاجية، فكل مستوى لساني لا يستقل بذاته في تحقيق نجاعته الحجاجية، بل يستمد خاصّيته الحجاجية من مستوى لساني آخر؛ لأنّ علاقة الإمداد والاستمداد بين مستويات الدرس اللساني متفاعلة، متداخلة، متجددة.

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نؤكّد أنّ أيّ مقاربة للخطاب القرآني لا تنطلق من هذه الرؤية الشمولية التكاملية للمستويات اللّسانية لن تستطيع النّفاد إلى خبايا هذا الدرّ المصون، مع ضرورة ربطها بالخطاب التفسيري عند المفسرين.

قائمة المصادروالمراجع :

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- ابن جني، " **الخصائص**"، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د. ط)، (د. ت).
- ابن القيم، " **بدائع الفوائد**"، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، (د.ط)، (د.ت).
- ابن كثير القرشي الدمشقي، " **تفسير القرآن العظيم**"، دار ابن حزم للطبع والنشر والتوزيع، 2000م.
- ابن عاشور، " **التحريروالتنوير**"، الدار التونسية للطبع و النشر، (د.ط)، (د. ت).
- أبو بكر العزاوي، " **اللغة والحجاج**"، منتديات سور الأزبكية، ط 01، 2006م.
- أبو الحسن الحرالي،" **تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير**" تقديم وتحقيق حمادي بن عبد السلام الخياطي، ط01، 1997م.
- أحمد البايبي، " **القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة في الصواتة الايقاعية**"، عالم الكتب الحديث، ط 01، 2012م.
- أحمد صالح شاهين، " **النظرية التداولية و أثرها في الدرسات النحوية**"، عالم الكتب الحديث، ط 01، 2015م.
- أحمد ياسوف، " **جمالية المفردة القرآنية**"، دار المتنبي، ط 02، 1999م.
- أمال يوسف المغامسي، " **الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية**"، الدار المتوسطة للنشر، ط 01، 2016م.
- تمام حسان، " **البيان في روائع القرآن دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني**"، عالم الكتب، ط 01، (د. ت).
- الجاحظ، " **البيان والتبيين**"، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 07، 1997م.
- الجرجاني، " **دلائل الاعجاز**"، قرأه وعلق عليه أبو فهد محمود شاكر، (د. ت)، (د. ط).
- جواد النوري، " **علم الأصوات العربية**"، جامعة القدس المفتوحة، ط 01، 1996م.
- حسن طبل " **المعنى في البلاغة العربية**"، دار الفكر العربي، ط 01، 1998م.
- حسني خاليد، " **مدخل إلى اللسانيات المعاصرة**"، (د. ط)، (د. ت).

- خالد عبد الرحمان العك، **" أصول التفسيروقواعده"**، دار النفائس، ط 02، 1986م.
- الراغب الأصفهاني، **" المفردات في غريب القرآني"** مكتبة نزار مصطفى الباز، (د. ط)، (د. ت).
- رضوان الرقيبي، **" الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله"**، مجلة عالم الفكر، مجلد 40، 2011م.
- زيد عمر عبد الله، **" السياق و أثره في الكشف عن المعاني"**، مجلة جامعة الملك سعود، مجلد 15، 2003م.
- سامية الدريدي، **الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه"**، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط 02، 2011م.
- سيد قطب، **" في ضلال القرآن"**، دار الشروق، الطبعة الشرعية الأولى، 1972.
- شاهين عبد الصبور، **" المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي"**، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د. ط)، (د. ت).
- صبحي صالح، **" مباحث في علوم القرآن"**، دار الملايين، ط 10، 1977م.
- عبد الفتاح لاشين، **" من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة"**، دار المريخ للنشر، (د. ط)، 1983م.
- عبد الله صولة:

- **"نظريات الحجاج دراسات وتطبيقات"**، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط 01، 2011م.
- **"الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"**، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط 01، 2007م.

- عبد الله محمد الجيوسي، **" التعبير القرآني والدلالة النفسية"**، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط01، 1006م.
- عبده الراجحي، **" مبادئ في علم اللسانيات الحديث"**، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، 1991م.
- فخري محمد صالح، **" اللغة العربية أداء ونطقا وإملاء وكتابة"**، الوفاء للطباعة والنشر، (د. ط)، (د. ت).

- فوزي الشايب، " **أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة**"، عالم الكتب الحديث، ط 01، 2004م.
- كمال بشر، " **علم الأصوات**"، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ط)، (د. ت).
- ماجد النجار، "**الدلالة الصوتية**" ، (د. ط) ، (د. ت).
- مبارك حنون، " **في التنظيم الإيقاعي للغة العربية نموذج الوقف**"، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 01، 2010م.
- مثنى كاظم صادق، " **أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية**"، منشورات الاختلاف، ط 01، 23015م.
- محمد محمد داود، "**كلمات القرآن والتطور الدلالي**"، دار النهضة، مصر، 2020م.
- محمد سعد الدكان، " **الدفاع عن الأفكار تكوين ملكة الحجاج والتناظر**"، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط 01، 2014م.
- محمد عبد الله الدراز، " **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**"، دار القلم، الكويت، ط 02، 1986م.
- محمد كريم الكواز،" **الأسلوب في الاعجاز القرآني**"، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط 1426هـ.
- مصطفى صادق الرافعي" **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**"، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط 09، 1973م.
- مكي بن أبي طالب القيسي، " **مشكل إعراب القرآن**" مؤسسة الرسالة، (د. ط)، (د. ت).
- ممدوح إبراهيم محمود محمد " **جمال الأداء لأي الذكر الحكيم في ضوء علم الصوتيات**"، كلية اللغة العربية فرع أسيوط، عمادة البحث العلمي جامعة الأزهر محمد بن سعود الإسلامية.
- ناصر مكارم الشيرازي، " **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل مع تهذيب جديد**"، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط 01، 2013م.
- يوسف القرضاوي، "**كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟**"، دار الشروق، ط01، 1999م.